عليّ مصطفى المصراتي

مؤرّخون من ليبيا
مؤلفاتهم ومناهجهم

عرض ودراسة

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان

مؤرخون
من ليبــيا
مؤلفاتهم ومناهجهم

علي مصطفى المصراتي

- الطبعة الأولى: (1977)
- الطبعة الثانية: الربيع 1370 و.ر (2002)
- كمية الطبع: 3000 نسخة
- رقم الإيداع المحلي: 4185/ 2001 دار الكتب الوطنية بنغازي
- رقم الإيداع الدولي: ردمك 6 - 0132 - 0 - 9959 ISBN

الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعـ

مصراته: هاتف: 614658 - 051 - 606086 - 021
ص.ب. 1459 - بريد مصور 619410 - 051
E-mail: daraljamahiriya@maktoob.com
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الإهداء

« إلى الذين أحبوا ليبيا وكتبوا تاريخها..

حتى غدوا جزءاً من التاريخ..

أهدي هذا الكتاب »..

علي مصطفى المصراتي

طرابلس 25 أغسطس 1976

ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل

هذا كتاب ألّفه رجل ليبي، ويدخل في نطاق كتب الذكريات والرحلات.

ويسجل أحداثاً ووقائع تاريخية عن موطنه ليبيا والبلاد العربية التي لجأ إليها، وتجول بها ويحكي في أسلوب مثير عن مشاهداته في الصحراء الليبية ما بين أرض فزان وصحراء سيوة، وريف مصر والقاهرة ومشاهداته في الحجاز وتونس والجزائر.

وكان تأليف الكتاب وتسجيل مروياته بطلب من الفرنسيين الذين كان على صلة بهم ويثق فيهم بصورة واضحة سجلها في كتابه.

وقد وصف مصرع والده الذي كان متمرداً ضد السلطة العثمانية.. وكان لقاء مريراً في معركة دامية صرع فيها عبد الجليل، وكما هو معروف في تاريخ العهد العثماني بطرابلس.. واستطاع ولده هذا ـ مؤلف الكتاب ـ أن يفر وينجو بنفسه.

وينطلق وحيداً في فيافي الصحراء في رحلة شاقة عسيرة، وحكى مشاهداته وصورها بدقة ولم يسجل تاريخ الأيام والأشهر، ولكنه مفيد كل الإفادة لدارس تاريخ تلك المرحلة.

والمؤلف هو ـ محمد بن عبد الجليل سيف النصر، وقد كتب كتابه هذا

بعد عشر سنوات من مصرع والده إذا كانت نهاية عبد الجليل سيف النصر عام 1842م وفرغ من تأليفه عام 1852م.

ويقال إن القنصل الإنكليزي في طرابلس استدعى عبد الجليل مبدياً التفاهم معه وأعلن عن رغبته في الاجتماع به لمساندته ضد الدولة العثمانية، ولكن هذه الرغبة كانت سراباً.. والمساندة لم يستمر فيها، فقد كان القنصلان الفرنسي والإنكليزي يتلاعبان بالحركات الشعبية في طرابلس، ويستغلانها أبشع استغلال لتحطيم الدولة العثمانية، وكان بين فرنسا وبريطانيا صراع على المنطقة أيضاً.

ويظهر تنافس وتدخلات القناصل الفرنسيس والإنكليز في حركات تلك الآونة ويظهر هذا مدعماً بالوثائق والمراسلات لدارس حركات غومه.. وميلود.. وعبد الجليل.. رغم أن الدوافع لهذه الحركات كانت بدافع وطني وإحساس شعبي.. لكن القناصل في خدعهم وتلاعبهم كانت لهم تدخلات وأصابع وأدوار.

وقد طوقت قوات عبد الجليل بحملة بقيادة الضابط العثماني والمواطن الليبي ـ حسن البلعزي ـ وكان الحصار شديداً عند مناطق سرت وأبي نجيم وانسحب عبد الجليل إلى قارة مرتفعة لا تزال تحمل اسمه إلى الآن.. وقتل هناك.. كما قتل معه أخوه سيف النصر وولدان لهذا الأخير كان ذلك عام 1842م وقطع رأسه وجلب إلى طرابلس، وفر هذا الابن محمد بن عبد الجليل، وأتيح له أن يكتب مؤلفاً تاريخياً عن مشاهداته وذكرياته يروي مغامرات الطريق.. ومتاعب الرحلة الشاقة.. ويقول في المقدمة.

يقول المؤلف محمد بن عبد الجليل.

«فإني أحكي لكم ما جرى علينا بالصحيح لا تبديل ولا تغيير.. فإني أحكي وأقول.. لما كنت ابن ثلاثة عشر سنة أتى عمي عمر من أرض تبو ورفعنا معه إلى أرض تبو وجعلنا مثل ابنه، لأنه ليس عنده في ذلك الوقت أولاد، وجعلنا في الجامع نقرأ في القرآن، فلما حفظنا القرآن جعل لنا عرساً عظيم وذبح في ذلك العرس مائة شاة من غنم السودان وأتى جميع أهل التبو.

وضيفوا عندنا، وحمدوا لعمنا على أجل حفظنا كتاب الله القرآن. . ولما كان عمرنا ثمانية عشر عاماً أرسلنا عمنا بهدية إلى حضرة سلطان خسنة وبرنو السلطان محمد بيلو».

ويبدأ كتابه المشحون بالذكريات والمعلومات بمثل هذه الأمور المتعلقة بحياته في السودان الأفريقي ببرنو. . . والنيجر أيام السلطان محمد بيلو.

وقد أكرمه هذا السلطان. . وأقام الاحتفال سبعة أيام وقدم محمد بيلو لهم الهدايا. . . وكانت هناك مصاهرة بينهم. . وأعطى لأختهم رقبة نعامة مملوءة بالتبر من الذهب. . ثم توجه إلى عمه واستغرقت مدة المسافة ثلاثة عشر يوماً. .

ثم رجع إلى أرض فزان بالهدايا والعطايا وأقام المؤلف في مطلع عمره عامين في أرض التبو ولما بلغ عمره إحدى وعشرين عاماً أرسل له والده رسائل يطلب فيها عودته. . . وعاد إلى أرض ليبيا ومعه خمسة وعشرون من الهجين. . وجاء إلى واحة مرزق وضربت النوبة العثمالى» ـ على حد تعبيره وظل العرس سبعة أيام. .

وهناك صور يحكيها عن العادات والتقاليد الشعبية في تلك الأيام. . وتلك الأنحاء. . وهي بجانب مواضيعها التاريخية أيضاً بها جوانب ومواد ذات أهمية لدراسة المجتمع وظروفه وأحواله المعيشية والاجتماعية الحسنة منها والسيئة والجيدة أو المهترئة. . وأقام الشاب العائد من أفريقيا سبعة عشر يوماً في أرض مرزق وبعد مسيرة سبعة أيام دخل (بني وليد). ولم يجد والده هناك فأقام ببني وليد ثلاثة أيام. . وذهب إلى أرض الزعفران. . وهنا يسوق سطوراً هي من النصوص والوثائق التي تستدعي انتباه الدارسين لتلك الفترة:

«. . وأخبرنا بأن كان حداه رجل من الفرنسيين وجاب له أربعة مدافع صغار وأنه محب لأبي. . » وتؤكد تدخل الفرنسيين في تلك الفترة من وراء ستار وقد خدعه الإنكليز وطارده العثمانيون فوجدها القنصل الفرنسي فرصة.

ويحكي المؤلف ـ وهو شاهد عيان ـ عن أسلوب تطويق حسن البلعزي والأدغم لوالده قائلاً: «نيتهم الخداع لنا هم والبلعزي».

ويروي قصة الصدام في الصحراء ومطاردة العثمانيين له ويتحدث عن الحيل أو التطويق الذي كان على حد تعبيره «ناعورة» وكان مع والده عبد الجليل مائتان من الفرسان ومع حسن البلعزي وجماعته ثلثمائة مسلح وروايته هذه عن المعركة الأخيرة من أهم الوثائق لتاريخ تلك الفترة التي ما زالت في حاجة إلى كشوف ودراسات.

ويقول إنه دخل عليه رجل من الترك وضربه بقربيلله وقبض على أبيه عبد الجليل ومن كان معه من إخوته وأولاد عمه.

وسرد في ثنايا كتابه هذا تفاصيل تهم المؤرخين واستطاع هو أن ينجو ليكتب لنا فيما بعد تفاصيل مشاهداته ورحلاته وذكرياته بأسلوب أقرب إلى اللهجة العامية. . والتعابير العفوية الدارجة.

والكتاب يقع في مائتين وواحدة من الصفحات 201 وليس بصفحات الكتاب فصول ولا عناوين داخلية. . ولا أبواب. . بل هو سرد لمعلوماته وإفاضة في الحديث عن مشاهداته. . وحديث عن المعارك والحالة السياسية وحوادث مصر وتونس والجزائر في تلك الحقبة من القرن التاسع عشر ويقول:

(. . وتوجهنا من أرض إلى أرض حتى وصلنا إلى نجع المغاربة وأنا مجروح على رجلي وأنا أجري الليل كله فلما تناصف الليل أقبلت علينا ثمانون خيلاً من خيل العرب الذي مع البلعزي وصار بيننا حرب شديد في ذلك اللقاء).

وكان هروبه على فرس طوال الليل وهم يلاحقونه على أثره. . ودخل مختبئاً في أشجار القندول. . ويتحدث عن العطش والجوع الذي كابده أثناء هروبه في الصحراء حتى أنه أصيب بالحمى. . ويتحدث عن الرجل الذي أكرمه وآواه. . وسقاه. . وعالجه. . وأطلعه على قصة والده. . ومعارك أهله مع الترك. . وتحدث عن أم الرجل الذي آواه.

(. . فجبدت لها عشرين بندقية من الذهب وعطيناهم لها وكانت تحتي خمسمائة بندقي (جنيهات ذهبية) وديعة تحتي على عازة الزمان). وخبأته المرأة في الزريبة. . وكمدت له الجروح حتى تماثل للشفاء.

(. . فلما برينا وأردنا التوجه من عندها جاءنا الخبر بأن الساعدي أتى من بعدنا بيومين وقتل من عساكر الترك شيئاً كثيراً ورجع. . وأما أبي وعمي جاءنا الخبر عليهم أن جعلوا عرس برؤوسهم في بلاد طرابلس، وأرسلوهم إلى إسطنبول وقتل الترك المريض ـ وبن لاغا عثمان مصطفى. . وكل من جعل لنا ناعورة وخدعنا قتله الترك).

ويمضي متحدثاً في كتابه الحافل بالوقائع التاريخية والصور الطريفة والمواد الصالحة لدراسة تلك الأوضاع. يتحدث عن زوادته في رحلته الشاقة العسيرة. . (. . وخرجت بالليل وجاب لنا شيء من البسيسة والبارود والرصاص. . وشكوة لأجل الماء. . وقال لنا:

إذا أردت أن نشترولك جمل، قلت ليس لي حاجة بالجمل فينظروني الناس لما نكون على جمل). . وقدم له هذا الرجل زاداً وشيئاً من لحم الوحش ونصف شاة من الغزال، وحباري وأرانب ووضعهم في المخلة ونعته إلى أين يمشي والاتجاه وطريق السير حتى يصل إلى واحة سيوة بالأراضي المصرية.

ويحكي لنا في كتابه الشيق هذا عن رحلته الصحراوية كيف كانت وأشجار القزاح ـ والبلبان ـ والمشان ـ والأثل ـ والبطوم ـ كانت تحت تلك الأشجار بعض من بقر الوحش راقدة والغزال بكثرة وافرة. . ووجد الفهد كثيراً وعناق الأرض الخ. .

وعندما تتبع الجرة لعين الماء إذ بالحيوان أقبل عليه من كل جانب ومكان فلما صار قريباً منه مد المكحلة وضرب بقر الوحش وهرب لما تكلم البارود وطارده ثعبان هائل واحتمى بشجرة وضربه بقربيله. . كان طول الثعبان سبعة عشر شبراً وارتفاعه وعلوه شبر وأربعة أصابع وفيه شعر وعلى كتفه شعر. . وبين عينيه حجرة مثل عين الهرة فأزال ذلك الحجر وأخذه ومشى ومشى في أرض صحراوية كانت تموج ببقر الوحش والكركدان والودان والفهد كما يصف ويعبر «شيء كثير».

كان ذلك من مشاهداته. . وقد انقرض هذه الوحوش من الصحراء في ليبيا الآن.

(. . فخترت منهم كركدان فحل قوي وله قرن قوي ولما تكلم عندنا البارود أصابه الرصاص على الكتف خرج من الكتف الآخر فجرى شيء قليل وطاح على الأرض مغشياً عليه فأتيت إليه وذبحته. وأخذت شيئاً من لحمه. . وقسمت رأسه بسيفي ونحيت قرنه. . لأن قرن الكركدان مليح للسموم إذ تحك قرن الكركدان في آنية فيها زيت وتسقى ذلك الزيت الذي تحك فيه قرن الكركدان فإنه يبرئ من السم. .).

ويتحدث عن فائدة قرن اللفعة للعمليات المضادة للسموم. . وهي تجارب يعرفها البدو في الصحراء ويقول:

(ويوجد قرن اللفعة عند الناس الأكابر من أرض فزان وتبو وغات وبرنو وغدامس. . والبعض من أكابر أهل طرابلس. . فكل من لسعته لفعة أو ثعبان أو عقرب حكوا له قرن لفعة أو قرن الكركدان بالزيت فيبرأ بإذن الله) اهـ.

وكما يصف المؤلف في طريق رحلته أنواع النبات والأشجار والحيوانات الأليفة والمتوحشة هو أيضاً يصف الطرق والمسالك والآكام.

ويهتم بوصف الأطلال والآثار. . وفي أكثر من موضع يبدي اهتمامه وتثير انتباهه تلك الأنواع من التماثيل والمباني والآثار الرومانية والأفريقية والتي يصفها بأنها من «قصور الناس الأولين».

وهي أيضاً أوصاف ودلائل تهم الدارسين والمنقبين وأهل الحفريات الأثرية والتاريخية والمهم فيما نقل وأشار هو تحديد أماكنها وإمكانية البحث عنها. . إن لم تمتد إليها يد السطو والنهب فهي آثار كانت موجودة بكثرة وافرة في العهد العثماني. . وسرب منها إلى الخارج شيء كثير وقد شاهد المؤلف كثيراً من التماثيل ووقف أمامها منبهراً ويقول في أكثر من موضوع إن عليها «كتابات بقلم الأولين».

ومكان هذه الآثار والمباني بين ـ أوجلة ـ وطرابلس[1] بين قبيلة أوجلة وغربيها. ولكن أكثر من ناحية الغرب، وبينه وبين أوجله مسيرة خمسة أيام مشي جيد.

ولقد طالت رحلته الصحراوية.. وذات مرة أقام في إحدى المناطق مدة اثنين وأربعين يوماً يعيش على اصطياد الغزال والبقر الوحشي.

ووصل إلى واحة «سيوة» بعد أن شاهد كثيراً من الغرائب والعجائب وفي واحة سيوة أقام عند الشيخ يوسف ستة عشر يوماً، وأعطى له هدية خيل وكسوة ومبلغ مائة خيرية وصرف الخيرية تسعة قروش مصرية.

ويتحدث عن وصف سيوة[2] ـ.. ثم من سيوة إلى منطقة الواحات.. وأرض البهنسة.. وأكرمه عرب الجوازي.. ويسوق في كتابه هذا قصيدة من الشعر الشعبي من نظمه يصف فيها غربته ومغامراته وحكاية فراره.. وفراق أهله ووطنه.. ويصف البهنسة «.. بلاد مليح بلاد الناس الأولين.. وقد فتن العرب فيها سابقاً فتن عظيم».. وأيضاً هو هنا يهتم بملاحظة الأطلال والآثار «.. وبها وقرب منها نواحي الغرب والقبلة آثار الناس الأولين وتصاور لهم حسنة».. وأما أهل البهنسة يقول عنهم «وهم ناس أجواد وفرسان خيل نساؤهم جمال الذات والصفات وهم يلبسون الدفية والعبان ويلوح على ظهورهم الملايا الزرقاء ومزوق بالأحمر،ة وأما نساؤهم يلبسن السورية[3] الزرقاء.. وهم أجواد بالفيوم والصعيد».

وترك البهنسة ورحل إلى العربي الذي هو من أصل ليبي ـ الجبالي أبو نعجة ـ شيخ العرب عند محمد علي باشا ـ ونزل في بيته.

ويذكر في كتابه هذا نسب الجبالي وحوادثه مع أسرة يوسف باشا

(1) صفحات 25، 26، 46، مخطوطة ري الغليل.
(2) ص 52 مخطوطة ري الغليل.
(3) السورية: القميص الجلباب باللهجة الليبية.

القرماللي. . وهجرته من ليبيا إلى أرض مصر. . ومكث عند الجبالي هذا واحداً وعشرين يوماً ثم توجه إلى الصحراء نواحي قصور الرهبان. . واصطاد هناك. . وهواية المؤلف الصيد. . ويذكر لنا في كتابه هذا طريقة صيد الغزلان. . وصيد النعام بأسلوب المحترف المتعود والخبير المتمرس.

ويذكر نهر النيل وأوقات فيضانه، ومواسم الزراعة عند الفلاحين في مصر، ويهتم أيضاً بآثار وأطلال مصر. . وهو اتجاه عجيب من هذا المؤلف الذي كان من المفروض أن يذكر حوادث بلده لكنه كلما شاهد آثاراً وأطلالاً وقف متأملاً مشدوهاً.

«. . لقينا قصراً من قصور الأولين في الصحراء التي قرب الفيوم، وفي ذلك القصر أربع صور من الناس الأولين ومكتوب على حجرة قدام كل صورة بقلم الناس الأولين وعلى أعلى ذلك القصر حجر مبني ومكتوب عليها بقلم الناس الأولين».

وهذه التي شاهدها من آثار الفراعنة. . ويقصد بقلم الناس الأولين تلك الكتابة الهيروغليفية وهو مهتم بالحيوان في الصحراء. . والصيد وطريقته ويتحدث عن بقر الوحش وصعوبة صيده ويقارن بين طريقة الصيد في صحراء ليبيا والصيد في أراضي مصر. . ويذكر أن (الودان أقل من البقروهو قصير عريض) ويقول. . (ونحن نقتلوه بالبارود على الخيل وهو موجود بالصحراء قرب بني وليد نواحي أرض طرابلس وصحرائها. . ونواحي ترهونه وأما الطرج موجود في الصحراء التي قبلة غدامس وقربها. . وهو على صورة الكبش وفيه لية الكبش فيها الشحم وهو لا يقدر على الجري ولا يسكن إلا في الأرض الخالية». . ويتحدث عن عظامه ولحمه وأنواع أخرى من حيوانات الصيد. . (. . وأما عظامه أحسن من عظام الفيل، ولحمه أحلى من جميع لحم الحيوان كله والكركدان مثل عنز السودان وهو عريض وقرونه تصلح يجعلونها مقابض للسيوف والكركدان موجود في صحراء غدامس. . وصحراء ودان وفزان. . وصحراء سيوة ويوجد الضب والفهد وعناق الأرض وجميع حيوان الصحراء

التي ذكرنا وأما من النعام وبقر الوحش الأبيض والأحمر شيء كثير، وأما النمر الموجود في الصحراء قليل إلا في بعض الأماكن وهو يقتل بقر الوحش في الصحراء».

هذه أنواع من الحيوانات كانت مزدحمة بها صحراء ليبيا أيام رحلته وكتابة مؤلفه هذا أما الآن فلا وجود لكثير منها مثل الفهد والنمر وبقر الوحش. . الخ. .

ويتحدث محمد بن عبد الجليل في كتابه هذا عن نماذج من الرجال الذين تعرّف بهم ولقيهم سواء في مصر أو تونس والجزائر. . وغيرها، فهو يقول عن صاحبه الجبالي، الشخصية التي كانت مقربة من محمد علي باشا، والجبالي هذا من أصل ليبي من منطقة جبل الأخضر من نواحي بنغازي. . وخرج من برقة وتوجه إلى مصر (ولما وقعت كائنة الغزى ـ المماليك ـ في بعضهم وأتى الملك المرحوم السلطان بنابرة ـ بونابرت ـ وحكم ملك مصر فركب الجبالي أبو نعجة عند مولى مصر وكان رجلاً صنديداً وكان يدعي بالصحبة لمحمد علي فلما خرج نابليون، وبعد بأربع سنين تولى محمد علي باشا على مصر فحظي الجبالي شيخ العرب عنده وأكرمه غاية الإكرام. . وصار الجبالي رجلاً كبيراً وكسب من الدنيا شيئاً كثيراً. . والآن مات وخلف ابنه الحاج حسين».

ويشير إلى شيء من تاريخ القبائل العربية ونزوحها إلى أرض ليبيا. . ويهتم بهذا اهتماماً لا يخلو من تفريعات. . (وأما الجوازي أصلهم من بني هلال لما خرجوا من نواحي برنجد ودخلوا بر مصر وطردوا من بر مصر وأتوا إلى زنات من بر تونس والآن فرقة منهم في نواحي وادي سوف ـ والآن يسمونهم الطرود. وأما أولاد زازيا من الهلالي رجعوا نواحي بلاد الشرق وسكنوا في أرض بنغازي وبرقة وأوجلة والآن طردوا من أرض بنغازي وبرقة وسكنوا أرض ريف البهنسة بقرب ـ وادي يوسف» الخ. .

ويتوجه من أرض البهنسة إلى كرداسة بقرب الجيزة. . كانت الرحلة بين

جبال من الصحراء والحر استغرقت ستة أيام حتى وصل أرض الجيزة ويتحدث عن (منف) والآثار. . ويبدو أنه قرأ كتاباً من كتب تاريخ مصر القديم. . ولا يخلو على ما يبدو من أسلوب الأساطير (وقد قرأنا في تاريخ مصر ونظرنا فيه وقال ذلك الكتاب[1]. . الخ).

ويرسم بيده صورة للأهرامات ويشير إلى موقعة الأهرام وتغلب نابليون على المماليك وكان المؤلف يبدي كثيراً من العواطف نحو فرنسا وشخصية نابليون بالذات. . (. . وفي هذا المكان غلب بونابرت المرحوم ـ الغزي وقهرهم وأخذ مصر). .

ويلتقى مع رجل من علماء الأزهر الشيخ محمد السمان ويحدثه عن دعوى بونابرت أنه أسلم. . وهي فرية وأكذوبة من أكاذيب الدعاية البونابرتية فنابليون لم يسلم ولكنها دعوة روجتها أساليب الدعاية وانخدع بها كثير من الناس من بينهم بعض الشيوخ. . وقد انطلت هذه الدعاية على كثير من السذج. . وها هو المؤلف يحكي ما سمعه من صاحبه الشيخ محمد السمان عن نابليون ودعواه (. . قال لي أتى بونابرت وأخذ الاسكندرية وأتى بجنوده ومحله في البر حتى وصل إلى أرض الجيزة بقرب الهرمين الذي صورنا وتلاقى هو والغزي. . وصار بينهم حرب شديدة. . وغلبهم وأخذ ملكهم. . فلما غلب مصر جعل صحبة مع أهل المدارس والرأي والعلماء والمرابطين وقال لهم أنا أسلمت فحيوه لذلك القول وجعل صحبة مع شريف مكة وصحبة مع سلطان العجم وصحبة مع سلطان الهند وصحبة مع سلطان إسطنبول، وقال لنا ـ أي الشيخ السمان ـ لو ما صارت الدعوى في بر فرنسا وخرج بونابرت المرحوم من مصر وحط جينرال في موضعه ولكن الجينرال الذي خلفه في موضعه ليس عنده عقل فسبب ذلك خروج الفرنسيين من مصر. .) الخ.

ويتحدث عن بونابرت بلهفة وحسرة فقد كان لا يشير إليه ويذكره إلا

---

(1) ص 67، ري الغليل.

بكلمة ـ المرحوم ـ ويراه بطلاً فوق التصور. . ولا عجب أن يقول هذا في كتابه وقد كتبه ليقرأه ويطلع عليه الفرنسيون المسؤولون أولاً. . أو لعله كتبه وسجل ذكرياته بإيعاز من بعض الدوائر الفرنسية في باريس أو خارج باريس وهو يقول ويكتب مثل هذه العبارة. . «ولو دام بونابرت مدة قليلة في مصر لكان أخذ جميع بر العرب والعجم وهو سبب حب العرب والعجم في بونابرت المرحوم أجل قال لهم ـ أنا أسلمت وكان رجلاً كريماً وصاحب عقل وذراع وسياسة وهذا ما علمنا من أمره رحمة الله عليه».

وهكذا بين لحظة وأخرى. . ومناسبة وبلا مناسبة. . يثني على نابليون ويترحم عليه، ويتحدث عن أيامه في مصر.

«وفي مصر كرينا بيتاً في وكالة الفحامين وكرينا لزواملنا قرب باب المتولي. . ثم أرسلنا زواملنا إلى السيد البدوي[1] لأجل حكمتنا[2] الحمة في مصر ومرضنا مرضاً شديداً. . قعدت في مصر عدة من الأيام حتى جاء وقت الحج وضاق خاطرنا في مصر من شدة المرض وغربتنا ومصيبتنا من فراق أبي وإخوتنا. . وكرينا بأربعمائة وأربعين 440 قرشاً جملاً وركبنا عليه وعليه قنطاران مؤونة ورحلنا من مصر إلى الحصوة».

وكانت سفرته إلى مكة أيام محمد على باشا إذ كان هو في صحبة الركب المصري. . وكان كبير الركب المصري رجلاً من طرف محمد علي باشا.

ويتحدث عن مشاهداته. . ويسوق كثيراً من المعلومات التاريخية. . وأشياء من الذكريات التي وقعت له.

ويتحدث عن معالم الحج وعرفات وعين زبيدة الخ. . وهو يلاحظ بحسه التاريخي آثاراً على أعلى جبل عرفات.

«. . وأما عرفات على أعلاه حجر من رخام طوله أربعة عشر ذراعاً. .

(1) يقصد مدينة طنطا.
(2) اصابته الحمى.

ومكتوب عليه بقلم الأولين فناس كثيرون الذين يعرفون بقلم الأولين وقلم رومان وغيره من الأقلام الأولين فلا قدروا يعرفوا ذلك الكتب الذي على الحجر . . الذي على أعلى جبل عرفات».

ولعل هذه الإشارة العابرة تفيد بعض أهل الآثار والتاريخ إن لم تكتسح السيول هذا الحجر الأثري الذي أشار إليه هنا .

وكانت حجة المؤلف أيام عبد اللّه بن الشريف بن عون شريف مكة .

وكما قارن في رحلته بين الحيوان في صحراء وريف مصر وحيوان صحراء ليبيا . . هو في أرض الحجاز يقارن بين أنواع الحشائش في صحراء طرابلس وفزان وبعض من أنواع الحشائش هناك في أرض الحجاز كانت تستعمل لدواء العين .

ويزور المدينة المنورة . . وبعد الحج يتوجه إلى ينبع البحر . . وينزل في دار رجل من أشراف ينبع اسمه السيد عبد العال .

«وسهرنا معه الليل وخرج لنا كتاباً مكتوباً فيه الغزوات متاع الصحابة والجهلية . . وفيه غزوة يقال لها غزوة السيسبان . فنقلنا منه غزوة وادي السيسبان وهي هكذا قال ابن عباس . . » الخ . .

ويسوق هذه الحكاية التي هي من مواد القصص الشعبي ومن أنواع الأساطير ذات الخصوبة الخيالية . . وليست من مواد التاريخ وحقائقه . . ولكن نقله لها وإعجابه بها يدل على إحساس وحب للتاريخ ولو كان ذلك بالمفهوم الأسطوري . . أو ذلك اللون ذي الطابع القصصي .

وركب البحر وتوجه إلى ـ القصير ـ في فرقاطة لمحمد علي باشا . . ويتجول في صعيد مصر من قنا إلى جرجا وفي جرجا يلاحظ « . . يصنعون فيها الكتان والقماش الأزرق الذي مزيق ويمشي[1] فيها إلى نواحي فزان وبنغازي

(1) أي يرسل كبضاعة .

شيء كثير من القماش» الخ. . ثم يذهب من جرجا إلى أسيوط. . ومنفلوط. . والمنيا. . ويصل القاهرة ويؤجر بيتاً بقرب الفحامين مع رجل من أهل طرابلس يقال له ـ سالم بن سليم. . وأقام بمصر أربعة عشر شهراً. . . ويتردد على الجامع الأزهر». . وكل يوم نمشوا إلى الجامع الأزهر ونحضروا الدروس. . ويشير إلى مآثر محمد علي في مصر وتاريخه ويضع كل اللوم على الإنكليز ومكايدهم في بلاد الشرق ـ ويذكر أن محمد علي باشا كان يريد أن يوصل النيل إلى طرابلس. . ولكن الإنكليز أحدث ناعورة بينه وبين السلطان محمود.

وبمقدار ما يثني المؤلف على الفرنسيين هو يرجع كل المصائب إلى الإنكليز وخدعهم ويقول: «وسبب خراب الأرض الإنكليز لولاهم ما خرج بونابرت من مصر وما صار فتن بين محمد علي باشا والسلطان ولولاهم ما خرجت الفتن في بر طرابلس ولا صارت الفتنة ما بين يوسف باشا وأولاد ابنه محمد الدباح».

وهو ينصح قارئ كتابه ألا يصدق ولا ينخدع بالإنكليز ويقول:

«. . ولكن أوصيك يا قارئ كتابنا فلا تأمن الإنكليز لأنهم ما يشتهوا إلا الفتن في جمع البلدان وأن سبب خراب ملك المسلمين والروم إلا الإنكليز».

كان يفكر في العودة إلى النيجر وأرض البلاد الأفريقية المتاخمة لفزان. . وحكى هذا لأحد أصدقائه ولكن خطة المسير تبدلت إلى ناحية إسطنبول. . ويروي (. . وأردنا أن نرجع إلى سيوه نتوجه إلى تبو إلى أخي محمد وعثمان الساعدي وعمر. . وجاءنا خبر ما بقي من جانبنا إلا عمر ومحمد والساعدي والشيخ غيث صغير وأحمد. . فدبر علينا محمد بن الدباح بن يوسف باشا «القرماللي» وهو بمصر وقال لنا: (. . إذا كنت تمشي إلى اسكندرية وتحسب روحك أنك تاجر من أهل الغرب وتركب البحر وتتوجه إلى إسطنبول تمشي إلى السلطان. . لعله يردك إلى بلادك فركبت بحر المحمودية وتوجهت إلى الاسكندرية وركبت في البحر من اسكندرية وتوجهنا إلى إسطامبول). .

وهكذا كانت رحلته وحوادثه التاريخية التي سجلها من صحراء وفيافي طرابلس إلى واحة سيوة إلى صعيد مصر فأراضي الحجاز. . ثم العودة إلى القاهرة. . والذهاب بحراً من اسكندرية إلى إسطنبول وهناك كتب عرضحال إلى السلطان ويقول. . (وذكرت له في ذلك العرضحال أننا ننزلوا في الموضوع الفلاني الذي قدمنا ذكره فلما قرأ أرباب الدولة العثمانية ذلك العرض أرسلوا إلينا بالليل وركبونا في البحر وأرسلونا إلى بلاد يقال لها طربزان).

لقد قبض عليه ونفي إلى مكان به كثير من أهل بلده المنفيين. . وفي مقدمتهم الثائر غومة. . ويقول. . «. . فلقينا بها كثيراً محبوسين من أهل طرابلس ومشايخها فلقينا الشيخ غومة شيخ المحاميد الذي أخذ كلام الإنكليز حتى حصل.

ولولا ما أخذ كلام فدريك ابن القنصل الإنكليزي لم حصل. . ولقينا الشيخ سلطان من ترهونة ولقينا الشيخ القمودي من غريان وأولاده، ولقينا ناس كثيرة من أهل طرابلس، فنزلونا في تلك البلاد التي يقال لها طربزان فأقمنا بطربزان ثمانية أشهر».

واستطاع أن يعمل حيلة ويدبر طريقة للهرب من طربزان أو طربزين مع رجل أرنؤطي. . وأجر قبطاناً يونانياً بمبلغ ستة آلاف قرش. . وارتدى زي رجل يوناني متنكر، وشحن اليوناني البحار مركبه بالشعير وتوجه إلى مالطا. . اثني عشر يوماً في البحر حتى وصل إلى جزيرة مالطا. . وكانت رحلة مغامرة مثيرة وبقي ستة أيام في مالطا متنكراً حتى ذهب إلى جربة الجزيرة التونسية. . ثم ذهب إلى تونس العاصمة متنكراً مدعياً أنه من تجار الغرب. . وفي تونس يلاقي هناك أيضاً (ميلود الجبالي) الذي كان وكيل (غومة) وهو أيضاً كان منفياً في إسطنبول وجده هناك مع غومة في طرابزين وجعل حيلة حتى هرب هو أيضاً إلى مالطا ثم إلى جزيرة جربة ثم تسلل (ميلود) من جربة إلى جبل يفرن وقام بثورة وحركة ضد الإدارة العثمانية وقتل ميلود القائد بالجبل وهرب إلى تونس. . وهذه الأمور التي أشار إليها المؤلف في كتابه تهم دراسة تاريخ غومة وانتفاضات جبل نفوسة

وزميله ميلود. . . وكان المؤلف صاحب الذكريات والمغامرات قد تحدث إليهم وشاهدهم أثناء المنفى بتركيا. . وهو مؤرخ وشاهد عيان. . ومواطن معاصر.

وفي الكتاب لمحات تاريخية عن بعض الشخصيات التونسية والمجتمع التونسي آنذاك، ويصف الكاتب المؤلف فساد وعربدة محمود بن عياد في تونس أشياء وأمور ينفر منها الذوق والوجدان وفضلاً عن استهتار وعربدة ابن عياد يقول الكاتب (سبب خراب تونس ابن عياد. . وهو رجل سارق وكذاب وما يشتهي إلا أخذ أموال الناس ظلماً).

وهرب محمد عبد الجليل من مطالبة ابن عياد، وذهب إلى سوسة.

ومن طرائف ما يذكره من خبايا تاريخ تلك الفترة أن ابن عياد المعربد الظالم ادعى أنه من المحاميد وأرسل ابن عياد إلى الشيخ غومة ـ شيخ أولاد ابن محمود وقال له: أريد منك أن تكتب لي شجرة وتذكر في تلك الشجرة أن أصل بن عياد خارج من أكابر المحاميد، ونعطي لك عشرين ألف ريال فكتب له الشيخ غومة شجرة وذكر فيها ابن عياد خارج من فلان إلى فلان حتى وصل إلى ابن عياد محمد بن عياد وأرسل إليه تلك الشجرة. فجد على أهل تونس وعلى بيّهم وعلى جميع الناس. . وأما ابن عياد ليس هو خارجاً من أولاد محمود. . وما هو إلا جربي بن جربي».

ويلاحظ هنا. . لعل غومة كتب هذا تحت ضغط الظروف لأنه كان لاجئاً في تونس ومطارداً من السلطات العثمانية بطرابلس. . وكان ابن عياد ظالماً جباراً كما حكى المؤلف نفسه. . أو لعل ابن عياد زور اسماً من أسماء المحاميد وادعى أنه من سلالته.

فما كان من غومة إلا أن أعطى الشهادة وعلى كل حال: هي مسألة ساقها المؤلف عرضاً عندما أراد إبانة الصورة عن ابن عياد الذي كان يطمع في استغلال محمد بن عبد الجليل أيضاً كما أشار في ذكرياته التاريخية. . ويقول المؤلف بعد أن أشار إلى ابن عياد بكلام طويل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأبان عن استبداده في تونس أوان ذاك «. . ولو عاش محمود صاحب طابع تونس ما بقي من جنس ابن عياد أحد. . ولكن جعل له ابن عياد حيلة قتال البي، وهذا ما علمت من أمرهم. .».

وسافر محمد بن عبد الجليل إلى نواحي أرض فزان بعد أن تحدث عن أحوال تونس وأمورها المعاصرة آنذاك. . وكان سفره عن طريق ـ هنشير البي وحيدرة، وكان يريد التوجه إلى منطقة الكاف وتوجه إلى نواحي تبسة. . ثم وصل إلى قسنطينة ويقول:

«بلاد مليحة وهي أعلى جبل ودايرة بها الأجبال من كل جانب ومكان ودائر بها وادي كبير وبها من نواحي ضهره جناين وأغراس كثير التين والعنب».

وتوجه إلى الجزائر العاصمة وأقام بها سبعة أيام ـ ثم البليدة ـ وإلى مليانة ـ ومليتة ـ وذهب إلى بسكرة ـ ثم إلى مناطق سيدي عقبة ويصف العادات والتقاليد ـ وبعض الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وإن كان يظهر التعاطف في حديثه عن الفرنسيين في وقت كان فيه هناك فئات من المناضلين والأحرار المجاهدين الذين تصدوا للاحتلال الفرنسي.

لكنه كان ـ على ما يبدو ـ مهتماً بتقديم كتابه ومعلوماته إلى الدوائر الفرنسية لعله يجد فيها حماية له من العثمانيين والإنكليز.

والكتاب من ناحية المعلومات ودراسة المرحلة على جانب من الأهمية للدارسين.

ويذهب متوغلاً في أرض الجزائر إلى بلاد سيدي راشد. ثم إلى إبرام ـ ومناطق المقارين ـ ويتحدث عن الزوايا والمساجد ـ والمدارس والقبائل ـ وأصحاب الطرق. . وأنواع من الناس. . وأنماط من المجتمع.

وفتح محمد بن عبد الجليل في مناطق ـ وادي ريغ ـ دكاناً للتجارة. . ومن الطريف أن يذكر ويسجل في كتابه أنواع السلع وأثمانها والحالة الاقتصادية وكان هناك صاحب له. . على صلة به. . ومن الذين يسيرون في ركاب فرنسا

هو الحاج عبد الحميد الجزائري ـ ويبدو أن هذا كان حلقة الصلة بينه وبين بعض رجال الإدارة الاستعمارية الفرنسية آنذاك . . وكتب له جواباً وأرسله إلى الكولنير بودفيل الفرنسي وذهب به إلى الكولنير ـ وأرسله صاحبه الحاج عبد الحميد الجزائري إلى منطقة ـ نقرت ـ ليستخبر حقيقة أمرها سنة 1268هـ 1852م .

وكان على صلة بالمسيو سروك ـ متولي بلاد بسكرة . . ثم عاد إلى بسكرة . . إلى الحاج عبد الحميد الجزائري وأطلعه على المعلومات التي شاهدها وتحصل عليها . . ووجهة نظره . . وتوجه مع صاحبه إلى مسيو سروك والكوماندتور كلينوا حاكم بسكرة . .

ورحل صاحبه الحاج عبد الحميد الجزائري من بسكرة وقال للمؤلف «تمشوا معنا حتى توصلوا لباريز» . . وعندما يصل محمد بن عبد الجليل إلى باريس ينظم قصيدة شعبية يصف فيها فرنسا وأهل باريس . . وسلطانها كان ذلك عام 1268هـ 1852م . . وهناك في باريس كتب مؤلفه هذا . . «ري الغليل في أخبار ابن عبد الجليل» وقال عنه «وقد جعلنا كتابنا بالنمر والأول والثامن إلى أن جعلت فيه مائتين وواحد وأنه طلبه منا الحاج عبد الحميد لأجل يعطيه لأولادنا لينظروا في سفرنا وما جرى علينا والسلام على القارئ والمستمع» اهـ.

وفي آخر الكتاب إمضاؤه وتوقيعه وختمه وتاريخ النسخ 31 ذي الحجة 1268هـ 14 أكتوبر 1852م.

والنسخة الوحيدة في العالم بخط المؤلف محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس .

